

علم الاجتماع مع الأدب والثورة

بقلم خليل أحمد خليل

وقد ظهر حديثا في فرنسا محاولة علمية بعنوان « من اجل علم اجتماع روائي » والباحث هو لوسيان غولدمان . وهذا ما سنتناوله بعنوان « مع الأدب » .

وعلم الاجتماع يتجاوز حدود المجتمع الراكد ليدرس المجتمع في تطوره - في حركته وتقدمه ونورته . وقد عرف العالم الثالث وافريقيا خاصة سلسلة من الثورات بعد الاستقلال أو قبله . هذه الظاهرة الثورية جذبت العديد من علماء الاجتماع والانثروبولوجيين والاشروبولوجيين لدراسة شتى خصائص المجتمع الافريقي واستعداده للتطور والتغير والتحول - استعدادة الثوري . وقد ظهرت لجان زيغلر « ZIEGLER » دراسة تحاول علميا فهم وشرح وتعليل ظاهرة الثورة في افريقيا . والكتاب يحتوي على مقدمة نظرية واسعة يعقبها ثلاث دراسات حول: الكونغو ليوبولدفيل وغانا ومصر . ونحن لن نتناول الكتاب في كل اجزائه ، وسكتفي بدراسة المقدمة النظرية ومناقشتها نظريا ، ثم نتناول المظاهر الثورية في مصر (١٩٥٢ - ١٩٦٢) . واختيارنا هذا غير قائم على تعصب قومي ، فهذا ليس من خصائص العالم او الثوري ، ولا على تجاهل أهمية هذين البلدين المذكورين ، بل لضيق مجال البحث ، ولان الكتاب كبير ، ولان مشاكل غانا والكونغو لا تختلف كثيرا عن مشاكل مصر . وأخيرا يعود اختياري هذا لضرورة فهمنا فهما صحيحا لحقيقة الثورة العربية في مصر . ومن المهم ان نرى كيف ينظر عالم اجنبي لمجتمعنا - وهذا لا يعني انه حيادي كما يجب وهذا ما سنراه في القسم الثاني من هذه الدراسة بعنوان مع الثورة. وكتاب جان زيغلر بعنوان « علم اجتماع افريقيا الجديدة » .

١ - مع الأدب

ان كتاب لوسيان غولدمان الصادر عن دار N. R. F. بعنوان « Pour une Sociologie du Roman » « من اجل علم اجتماع روائي » هو خلاصة لنتائج ابحاث اجريت خلال سنتين في مركز علم الاجتماع الادبي « وفي « معهد جامعة بروكسل لعلم الاجتماع » اما القسم الرابع من الكتاب فقد حرره غولدمان لحساب المجلة الاميركية « Moderne Language Notes » .

ودراسة عالم الاجتماع لشكل الرواية قد تسمح بتجديد علم الاجتماع الثقافي والنقد الادبي . فحيث يصير علم الاجتماع الادبي مجال ابحاث جماعية يتمكن العدد الاكبر من الباحثين في الجامعات والمعاهد ومراكز الابحاث العلمية ان يقفوا على حقيقة الادب وعلى اهم مشاكله . وعلم الاجتماع الادبي لا يتوانى عن استخدام مناهج النقد الحديثة مثل التركيبية الديناميكية والتحليل النفسي وحتى التركيبية غير الديناميكية . اما الدراسات التقليدية من تجريبية ووضعية وسيكولوجية فهي تسيطر على حياة الجامعات في المجال الكمي على الاقل . وغولدمان يتبنى نظرية هيجل في دراسته حيث ان « الحقيقي هو الكلي » وهذا يعني في لغة علم الاجتماع ان الخلائق الحقيقية والفعلية هم جماعات - اي الافراد المجتمعون وليس الافراد المنزولين . لذا فعالم الاجتماع مطالب بان يأخذ بعين الاعتبار دور الكاتب ايضا . ويبدأ كتاب غولدمان بطرح المشاكل العامة التي تقترض . سبيل عالم الاجتماع الذي يغامر في دراسة الرواية . فالرواية هي صنف

لا ننوي هنا ان نقارن بين علم الاجتماع والنقد الادبي من ناحية وبين علم الاجتماع والسياسة من ناحية اخرى . ان علم الاجتماع يدعي الشمول كالتاريخ ، فهو يميل الى استيعاب كسل الظواهر الاجتماعية واخصائها للتحليل والدرس ، بغية الوصول الى اكتشاف قوانين عامة او على الاقل بغية تعليل ظهورها . وعلم الاجتماع لا يستهدف كشف الفوضى الاجتماعي مسخرا اكتشافاته لخدمة بعض الجهات الخاصة . ان علم الاجتماع اذ يكتشف - ويعمل على كشف حقيقة المجتمع - انما يعني بث بذور الوعي والتربية الانسانية وهو لا يتوانى كعلم عن التضامن مع العلوم الانسانية الاخرى واضعها اكتشافاته تحت تصرف الانسانية عامة . وقد تناست اوروبا الرأسمالية أهمية المجتمع ككل ولم تتمكن من كشف القوى التي تحرك المجتمع ، السى ان برزت النظرية الماركسية فاعطت نظرية صحيحة ممثلة التطور بارتكازها الى فلسفة تاريخية عميقة . ان علم الاجتماع يصير شيئا فشيئا اكثر أهمية من ذي قبل : بعد ان تاكد علماء الاقتصاد من ان اسباب التخلف او التقدم ليست اقتصادية فحسب بل ثقافية وفكرية وحضارية . وعلم الاجتماع اذ يدرس الثقافة يرى ان المجتمع هو الثقافة - والثقافة هي عودة الى الماضي - لذا فالمجتمع الانساني له تاريخه وهو تاريخ بعد ذاته ، اما التكنيك فهو امتداد صوب الافق صوب المستقبل . والمجتمع البشري في مرحلته الراهنة في حاجة ماسة الى محاولات علمية يقوم بها علماء الاجتماع الباحثون لاضاءة الطريق الصعبة حيث اختيار المفاصل - معقدا ومدعشا .

ان علم الاجتماع يتناول الادب والفن كاعمال حضارية . وعالم الاجتماع اذ يتناول الادب فهو يختلف عن الناقد الادبي منهجا واهدافا . فمنهج الناقد الادبي هو تحليل المحتوى اي تحليل النصوص واطهار الناحية الجيدة والناحية السيئة في العمل . فالنقد الكلاسيكي لم يتطور كثيرا في عصرنا هذا ، فنحن لا نزال نعيش على تراث قديم - جديد . فالفاية النقدية هي تقديم العمل الادبي وعرضه ، لذا نرى ان النقد الادبي سلبي - بمعنى انه لا يخلق شيئا جديدا - لكنه ايجابي بمعنى انه يحدد معالم الطريق ويضع حدودا لاخطساء ارتكبت فيجنب القارئ نتائجها وينبه الكاتب اليها . اما عالم الاجتماع الذي يتناول العمل الادبي فهو يعتبره جزءا من النظام الادبي الاجتماعي فيحاول ان يرى كيف ولد هذا العمل وما هي علاقة النظام الادبي الذي انتج هذا العمل مع الانظمة الاخرى . ومن الملاحظ ان علم الاجتماع الادبي متأخر جدا في هذا المجال لاسباب كثيرة . ان علم الاجتماع قد ظهر كعلم في مطلع القرن العشرين كنظرية فلسفية في التاسع عشر . ثم تخوف علماء الاجتماع وتخبطهم النظري الذي يعانیه كل علم يريد ان يكون فعلا علما حقيقيا موضوعيا وثاقبا . ان تردد علماء الاجتماع ناتج عن غياب التراث في هذه المادة وعن سيطرة النقد الادبي والمغالاة في اعتبار العمل الادبي كلفز او سر او سحر . وكل هذه الاعتبارات هي شعرية ليس لها اي حقيقة علمية . واننا نورد النظرية الرومانسية في الایحاء او « سر الخلق » كمثل على ذلك . ونضيف الى اسباب تاخر علم الاجتماع في دراسة الادب فشل المحاولات العلمية في هذا المجال . الا ان النظرية الماركسية قد شجعت كثيرا هذا القطاع العلمي ، وذلك لانها تعتبر ان الفكر البشري وكل انتاجاته على علاقة حقيقية مع الاطر الاجتماعية .

أدبي . الرواية ليست الأدب ، كذلك الشعر . الأدب نظام . والرواية كصنف لها عدة نظريات تحدها - وكل تحديد تقييد - والرواية تحتاج الى حرية ، الا انه لا بد من التعريف بالعمل الروائي مع تحفظ بالغ وهذا رأينا الشخصي وكذلك هو الامر فيما يخص الشعر وخاصة القصيدة . غولدمان ينطلق من نظرية لوكاتش « LUCAKS » « نظرية الرواية » ومن نظرية جيرارد في كتابه « الكذبة الرومانسية والحقيقة الروائية » . وانطلاق غولدمان النظري هذا ادى به الى صياغة عدة افتراضات تتيح له العمل والبحث النظري . وهذه الافتراضات تخص: التشابه القائم بين بنية الرواية الكلاسيكية وبين بنية التبادل في الاقتصاد الليبرالي ووجود بعض التشابه بين تطور هاتين الظاهرتين فيما بعد .

فما هي الخطوط العريضة التي تميز بنية الرواية حسب لوكاتش ؟ ان شكل الرواية التي يدرسها لوكاتش يتميز بوجود بطل روائي عرفه لوكاتش بالبطل الشبوه او المزوج . فالرواية هي البحث عن قيم حقيقية في عالم منقطع . والقيم الحقيقية ليست القيم التي يعتبرها الناقد او القارئ كذلك ، بل هي القيم التي تنظم عالم البطل حسب طريقة ضمنية . والرواية كصنف ملحمي تتميز بانفصال البطل عن العالم . والانقطاع الجذري عن العالم ادى الى ظهور التراجميديا والشعسر الغنائي . اما الانقطاع العادي فقد ادى الى ظهور الملحمة والقصة . والرواية تتراوح بين هاتين الدرجتين من الانقطاع ، لذا فهي ذات طبيعة ديالكتيكية . فالبطل « الشيطاني » في الرواية هو معنوه او مجرم: انه شخص منقطع عن العالم . وقد حاول لوكاتش ان ينظم اصناف الرواية منطلقا من علاقة البطل بالعالم فوصل الى ما يلي : لقد وجد ثلاثة نماذج للرواية الغربية في القرن التاسع عشر ، يضاف اليها نموذج رابع ظهر في 1920 مع روايات تولستوي التي انجبت نحو الملحمة . والتكتم نماذج الرواية :

1 - الرواية « المالية التجريدية » : مثل دون كيشوت او الاحمر والاسود .

2 - الرواية « البسيكولوجية » : مثل اوبلوموف و « التربية العاطفية » .

3 - الرواية « التربوية » : مثل ويلهم ميستر لفوته . اما المنطلق النظري الثاني الذي يتفدى منه لوسيان غولدمان فهو كتاب رينه جيرارد المذكور . وجيرارد يلتقي بعد اربعين سنة تفصله عن لوكاتش ، مع معظم الراء السابقة . وجيرارد يستعين بلفة هيدجر الا انه يجدها ويعطيها محتوى جديدا في اغلب الاحيان . وجيرارد يستخدم مبدأ ثنائية « الكياني » و « الميتافيزيائي » التي تتوافق تنابعا مع « الحقيقي » و « غير الحقيقي » . اما طريقته في تصنيف الروايات فقائمة على ان فكرة « انحطاط العالم الروائي » هي نتيجة شر كياني . وان انحطاط عالم الرواية وتقدم قوى الشر الكياني يوسمان الشقة بين الرغبة الميتافيزيائية وبين البحث الحقيقي ، البحث عن « السمو العامودي » .

ونجد في مؤلف جيرارد امثلة عن التوسط : مثلا العاشق الذي يتوسط بين الزوج ورجسته في المرأة مثلا (الزوج الابدي) لدوستيوفسكي . ولكننا لا نعتقد ان التوسط هذا يشكل نوعا خاصا من الرواية . اما تصنيفه الروائي فقام على وجود شكلين للتوسط : شكل داخلي واخر خارجي . ويتبنى جيرارد فكرة تقدم الانحطاط . وهناك نقطة رئيسية تفصل لوكاتش وجيرارد . هما متفقان على ان الروائي يتخطى او ان عليه ان يتخطى وعي ابطاله وان هذا التخطي الاستاتيكي هو في اساس الخلق الروائي . ويختلفان حول طبيعة هذا التخطي ، وفي هذا المجال يتبنى غولدمان وضعية لوكاتش ويرفض وضعية جيرارد . فينظر جيرارد بهجر الروائي عالم الانحطاط بينما يكتب مؤلفه ، ليجد الحقيقة والسمو العامودي . وان موقفا كهذا مناقض للاستاتيك (او عليم الجمال) اللوكاتشي الذي يؤكد ان كل « شكل ادبي » وكل شكل فني عظيم بصورة عامة هو جزء من حاجتنا للتعبير عن « محتوى جوهري » . وبمعكس

جيرارد يبين لنا لوكاتش ان الرواية تعمل خيالي وخلق لعالم يسيره الانحطاط « الشامل » لا تسمح للروائي ان يتخطى هذه الحالة والتخطي يبقى اذن انحطاطيا مجردا وغير معاشي كواقع محسوس .

فمشكلة الرواية هي ان نجعل ما هو مجرد في وعي الروائي وما هو اخلاقي مادة الجوهري للعمل الفني . فالرواية هي النوع الادبي الوحيد حيث تصير اخلاقية الروائي مشكلة العمل الاستاتيكي - لوكاتش - . لقد كانت الرواية في القسم الاول من تاريخها تدوينا للحياة الشخصية وتاريخيا اجتماعيا . وقد حاول النقاد ان يبرهنوا ان الرواية الاجتماعية تعكس نسبيا حالة المجتمع التاريخية . الا ان الرواية قد تحولت منذ كافكا ويلاحظ ان هذا التحول على علاقة مع تحاليل ماركس لظاهرة الاسترقاق البشري . ويرى علماء الاجتماع الجديون في ذلك مشكلة اكثر منه شرحا علميا . والمشكلة التي يثيرها عالم الاجتماع تيلور كما يلي : لماذا ظهر هذا التحليل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؟ ان علم الاجتماع الروائي هو دراسة علاقة الشكل الروائي مع بنية الوسط الاجتماعي . هناك توافق حقيقي بين شكل الرواية الادبي وبين علاقة الناس اليومية مع الاشياء ، وعلاقة الناس فيما بينهم ، في مجتمع ينتج من اجل السوق - اي في المجتمع الرأسمالي . ولو قبلنا الوهم الرومانسي - اي القول بالانقطاع الكلي عن العالم ، وبانفصال الجوهري عن المظهر وانفصال الحياة الداخلية عن الحياة الخارجية ، فاننا لا نستطيع القول بانفصال كهذا حينما تتحول الحياة الاجتماعية الى كتاب ولوحة وتعليم وقطعة موسيقية . . . ان هذه الاشكال التعبيرية تصود فتحاول ان تخلق علاقة - او ان تجسدها - . وخلق هذه العلاقة يفترض البنى الاجتماعية والثقافية والتكنيكية والسياسية والاقتصادية ويفترض الافراد . وخلق العلاقة يفترض التبادل . وهكذا تتوافق بنى النوع الروائي مع بنى التبادل الاجتماعي لدرجة اننا نستطيع ان نتكلم عن بنية واحدة تظهر في مجالين مختلفين . وهذا يعني ان الرواية على علاقة عميقة بتركيب الواقع الانساني . لكن ما هي نوعية هذه العلاقة ؟ ان معظم علماء الاجتماع الادبي يقيمون العلاقة بين الاعمال الادبية الاكثر بروزا وبين الوعي الجماعي . وحول هذه النقطة لا يختلف موقف الماركسية التقليدية عن مجموع اعمال علم الاجتماع الادبية غير الماركسية . الا ان الموقف الماركسي يصيف اليها اربع افكار جديدة .

- الفكرة الاولى : ان العمل الادبي هو نتيجة التوصل الى مستوى مرتفع من ترابط الميول الخاصة بوعي هذه الجماعة او تلك . هذا الوعي يجب اعتباره كحقيقية ديناميكية متجهة صوب حالة توازن . والماركسية ترى ان « الوعي الممكن » يسمح لنا وحده بفهم « الوعي الجماعي الحقيقي » .

- الفكرة الثانية : ان العلاقة بين الفكرة الجماعية وبين اعظم الابتكارات الفردية قائمة على ترابط البنى العميق وعلى توافقها .

- الفكرة الثالثة : ان العمل المبر عن فكرة جماعة ما قد يكون من ابتكار فرد ذي علاقات ضئيلة مع هذه الجماعة .

- الفكرة الرابعة : ان الوعي الجماعي ليس بحقيقة اولية ولا بحقيقة تامة مستقلة . ان هذا الوعي ينشأ ضمنا في السلوك العام للافراد المساهمين في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . . . اما الماركسية القديمة التي كانت ترى في البروليتاريا الجماعة الاجتماعية الوحيدة القادرة على خلق ثقافة جديدة ، لانها لم تكن خاضعة للمجتمع المستبد ، فقد كانت منطلقة من علم الاجتماع التقليدي الذي يرى ان كل ابتكار حقيقي ومهم لا ينبع الا من علاقة جوهري بين بنية الكاتب العقلية وبين بنية الجماعة البشرية . ويؤكد كارل ماركس ان الوعي الجماعي يفقد في المجتمع الرأسمالي كل حقيقته الفعالة ويصير شيئا فئسيا عاكسا للحياة الاقتصادية الى ان يتلاشى اخيرا .

والسؤال الرئيسي الذي يطرحه غولدمان هو التالي : كيف ترتبط البنى الاقتصادية بالظواهر الادبية في مجتمع يتم فيه هذا الترابط منعزلا عن الوعي الجماعي ؟ وقد صاغ غولدمان افتراضه الرئيسي المرتكز على اربع نقاط وهي :

أ - لقد ولدت في فكر أعضاء المجتمع البورجوازي ، ابتداء من سلوكهم الاقتصادي ومن وجود « قيمة التبادل » « بآية التوسط » كشكل رئيسي من أشكال الفكر ، وتصير القيمة التوسيطية قيمة مطلعة بفضل انتشار الوعي الخاطيء كليا .

ب - ما زال في المجتمع البورجوازي عدد من الافراد المزدوجين ، من هؤلاء الافراد : نعني المبدعين ، الكتاب ، الفنانين ، الفلاسفة ، علماء اللاهوت ، ورجال الاعمال . . .

ج - لا يمكن اعتبار اي عمل ادبي مهم كتعبير عن تجربة فردية فقط . . .

د - ان وجود قيم (كالحرية والمساواة والملكية في فرنسا) ادى الى ولادة بآية جديدة من سرد الحياة الفردية ، هذه البآية صارت العنصر البناء في الرواية التي اتخذت شكل الفرد المشبوه او الزوج اعتبارا من النقاط التالية : التجربة الشخصية ، التناقض الداخلي بين الفردية كقيمة عالية انتجها المجتمع البورجوازي وبين حدود امكانيات الافراد . وقد كانت الفردية متجهة نحو الابدان ، بعد تحول الحياة الاقتصادية واستبدال اقتصاد المزاومة الحرة باقتصاد الكارنل والاحتكارات . وازاء هذا التحول الاقتصادي برز التحول الروائي شكلا ، ولعل اهم ظواهر التحول هو اختفاء الشخص الفردي « البطل » . ولهذا التحول مرحلتان : المرحلة الاولى : أن انخفاض اهمية الفرد

المعزل ادى الى استبدال « السيرة الشخصية » كمحتوى للعنصر الروائي بقيم جديدة ولدت من ايدولوجيات مختلفة . (مثل : المؤسسات ، العائلة ، الثورة . . .) . المرحلة الثانية : تبدأ بعد كافكا تقريبا وتتم حتى ظهور الرواية الجديدة المعاصرة التي لم تكتمل بعد . وتتميز هذه المرحلة بترك فكرة استبدال البطل المشبوه والسيرة الذاتية بأي واقع اخر ويجهد خاص لكتابة رواية عن « غياب الموضوع » وعن عدم وجود اي بحث عن غاية . وهكذا كانت الغاية من هذه الحركة ابعاد عنصرين رئيسيين من عناصر الرواية : بسيكولوجيا البطل المشبوه وتاريخ البحث

صدر حديثا :

اخر رواية كتبها الاديب الكبير

كولن ويلسون

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

الشك

رواية عاطفية ، وفلسفية ، وبوليسية . . . في وقت واحد ! وهي كذلك فضح لاساليب اليهود الاجرامية وتحليل لتأثير المخدرات !

من هنا كان غنى رواية « الشك » ، وما تثيره لدى القارئ من شوق وفضول . . . وليس ذلك غريبا على واحد من اكبر مفكري هذا العصر . . .

منشورات دار الاداب ٥٠٠ ق.ل

الشيطاني . من هذين العنصرين يمكن خلق علم اجتماع مسرح اللامعقول (بيكيت ، يونسكو واداموف اثناء فترة فقط) ويمكن استخلاص بعض خصائص الرسم غير التصويري . هذا الشكل الروائي هو انتقادي وتعارضية . هو من اشكال مقاومة المجتمع البورجوازي الذي يحاول ان يظهر الى الوجود . فعمل بلزك يعبر تعبيرا صحيفا عن قيم العالم البورجوازي : الفردية ، النطش للقوة ، المال ، الحب الاباحي المنتصر على قيم المجتمع الاقطاعي كإنكار الذات والشفقة والحب . . .

ويرزعم لوسيان غولدمان انه لا يوجد ابتكار ادبي وفني الا حيث يبرز النوق لتجاوز الفرد والبحث عن قيم فردية حيث « يعبر الانسان الانسان » . وهذا يعني ان الانسان لا يصير حقيقيا الا اذا احس انه جزء من الكل الذي لا يكتمل ، هذا الكل منفتح وصبوري . ويسرى غولدمان ان البورجوازية قد خلقت اول شكل من اشكال الوعي غير - الاستاتيكي . فالميزة الرئيسية للفكر البورجوازي هي العقلانية التي تنتكر لوجود الفن . وبني المجتمع المرتبط بالسوق (اي المجتمع الرأسمالي) يصير الفنان انسانا مشبوها ، مزدوجا وهذا يعني انه انتقادي وتعارضية . وهكذا نلاحظ أن غولدمان كعالم اجتماع يعود الى التاريخ ليربطنا من خلاله بالحاضر . فصيافته اهم المشاكل الادبية وعلاقتها بالاقتصاد واضحة . وهو ينطلق من النظرية الماركسية - وهو لا يخفي ذلك - . يتساءل القارئ هل تشكل هذه الافكار التي لخصناها بسرعة نظاما واحدا يسمح لنا ان نرى من خلاله ؟ ان هذا النظام الفكري الذي حاول غولدمان اقامته متماسك تاريخيا ، ومن حق عالم الاجتماع ان يختار بعض نقاط كمطلقات رئيسية لبحثه وان يترك نقاطا اخرى لباحثين آخرين . فمن حق العقل ان يطرح الاسئلة التي تهمة . وينظر غولدمان - وهذه هي النظرة الماركسية - ان ثمة علاقة قائمة بين الاقتصاد والادب . ولو عدنا الى ماركس في « نقد الاقتصاد السياسي » صفحة ٢٥٥ - ٢٥٧ منشورات شليشر عام ١٨٩٩ وجدنا ما يلي : « ان علينا ان نبحث في الاقتصاد السياسي عن بنية المجتمع المدني . وفي الانتاج الاجتماعي يخلق الافراد علاقات مستقلة عن ارادتهم ، ضرورية ومحددة . ان علاقات الانتاج هذه تتوافق مع درجة ما من نمو قواهم الانجابية المادية . ان مجموع علاقات الانتاج هذه يشكل بنية المجتمع الاقتصادية ، القاعدة الحقيقية التي ترتفع فوقها البنية الفوقية الفضاوية والسياسية والتي تستجيب لها اشكال الوعي المحددة اجتماعيا .

ان طريقة الانتاج في الحياة المادية تحدد ، بصورة عامة ، المغامرة الاجتماعية والسياسية والفكرية في الحياة . ليس وعي الانسان هو الذي يحدد وجوده ، ان وجوده الاجتماعي هو الذي يحدد وعيه » . وهذه الفكرة الاخيرة هي المنطلق الاساسي كما يبدو لنا لغولدمان . ونشير اننا ترجمنا هذا المقطع من ماركس بشيء من التصرف . ان الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي . ولولا العمال - الذين ينتجون القيم الاجتماعية الحقيقية لما كان للرواية اي معنى او حقيقة . اذن الادب هو عمل جماعي - حتى اتقصيدة - وان كان المبتكر فردا لا جماعة .

طبعا نحن لا ننكر حق الباحث في الانطلاق من نقطة خاصة حيث يكون هناك نقاط كثيرة لا تتساوى من حيث الاهمية ونحن نوافق الموقف الماركسي حول ضرورة اخذ الاقتصاد بعين الاعتبار ، ومن المهم جدا ان نبحث عن التحول الاجتماعي الناجم عن التطور الاقتصادي . اذن غولدمان على حق في انطلاجه هذا . الا اننا نوجه اليه النقد التالي : لم يوضح كثيرا الموقف الماركسي ، ولا كيفية ولادته في القرن التاسع عشر ، واذا رد علينا بان غاية العمل هذا هي دراسة الرواية بطريقة علمية اجتماعية ، اجبتا بان الكاتب قد اختار منطلقه فلا بد من توضيحه للغاية . والنقد الثاني الذي نوجه له هو انه نسي ان علم الاجتماع مهما حاول لا يستطيع ان ينكر البسيكولوجيا والعلوم الانسانية الاخرى ، وان على علم الاجتماع ان يفتح على علم النفس بعد ان صار هذان العلمان في مرحلة نصج نسبية تسمح لهما بالتعاون ، ولعل انفتاح العلوم الانسانية على بعضها يسهل لنا كثيرا فهم الرواية والادب او اي ظاهرة اجتماعية اخرى ، اذن الحدث الاجتماعي هو كلي وشامل - موس - وهو متعدد الجوانب (غيرفيتش) . والنقد الثالث : هو ان لوسيان غولدمان يعمد السى

تحليل روايات أندره مالرو ، والواضح ان الغاية من العمل هو دراسة الادب الفرنسي ككل . فلماذا اختار مالرو بالذات ؟ ونحن هنا لا تكناي عداء منهجي لمالرو ، ولكن من حقنا ان نسأل وخاصة ان الادب الفرنسي - في الرواية خاصة - قد تمثل بكتاب كبار : أندره جيد ، سسانت اكريوري ، مالرو ، كامو ، سارتر وروب غرييه ما هي المميزات الخاصة التي دفعت غولدمان الى البدء بمالرو بالذات . فاذن من حق القارئ ان يعرف لماذا اختار هذا الكاتب بالذات وليس سواه ؟ . وغولدمان لا يعطي اي فكرة عن سبب اختياره هذا .

ثم ان غولدمان يعمد الى تحليل روايات مالرو جميعا ، معتمدا كما يظهر لنا مظهر الناقد الادبي ، اي تحليل النصوص واستنباطها ومنهجتها - سائرا نحو خلق نظام فكري يرر النظام النظري الذي صاغه في المقدمة او لا يرره في بعض النقاط . ويسمي هذا الفصل من الدراسة : « مدخل الى دراسة تركيبية لروايات مالرو » ونحن لا نرى ان ثمة فائدة كبيرة في الحديث عن تحليل غولدمان لهذه الروايات اذ لا شيء يضمن لنا ان القارئ العربي على اطلاع كلي على روايات مالرو . وهذا لا يعني اننا نتجاهل قيمة عمل غولدمان التحليلي هذا ، ولا ننكر ملاحظاته العميقة المهمة والواضحة . ونلاحظ ان غولدمان قد حاول في تحليله لروايات مالرو ان يتحاشى اصدار احكام مرتجلة او مبرهنة عن آراء ذاتية غير علمية - آراء فنية او سياسية منهجية او ايديولوجية - ، الا ان تحاشيها بصورة تامة امر غير ممكن . وان الدراسة الراهنة ليست الا خطوة اولى ، موقته جزئية ، في اطار بحث عام اوسع حول الفكرة والمجتمع والادب الفرنسي بين الحربين . لذا لا يمكننا ان نصدر اي حكم موضوعي على ما هو زمني غير محدد وما هو في طريقه الى الوجود . هذا العمل برعم ، بقي عليه ان يزهر وان يشمر .

وقد ظهرت دراسة غولدمان هذه حينما نشر سارتر في كتابه «الكائن والعدم» ص 615 - 628 رأيا خاصا ضد هيدجر ومالرو قريبا من رأي غولدمان الناتج عن تحليله لروايتي مالرو « الفزاة » و « النهج الملكي » . فينظر سارتر يحدد الانسان بالمشروع الرئيسي والمشاريع الثانوية «وهنا نجد الفكرة الفلسفية التي اوردها جان لاکروا في كتابه « الفشل : الانسان هو مشروع معرض للفشل - والفشل الحقيقي هو الموت - او عدم » . فالألموت عند سارتر ليس امكانا فرديا او شخصيا بل هو من معطيات الخارج . فالألموت محدد ، لذا فهو غير خاضع لاختيارنا . انسه كالشمس والاشياء الطبيعية . الموت هو غير المنتظر .

بعد ذلك يقدم غولدمان فصلا جديدا بعنوان « الرواية الجديدة والواقع » . وهذا الفصل لا علاقة له بالابحاث السابقة ولا بوجهة نظر عالم الاجتماع . فهو بين موقف عالم الاجتماع وبين موقف الكاتب . يتناول غولدمان في هذا الفصل كاتبين جديدين : الان روب - غرييه وناتالي ساروت . ويجمع هذين الكاتبين نقطة مشتركة - لعلها نقطة انطلاق اكثر مما هي نقطة النقاء - : الواقعية الادبية . ويرى معظم النقاد وقسم كبير من الجمهور في هذه الواقعية الادبية مجموعة اختيارات شكلية خالصة ومحاولة في الهرب خارج الواقع الاجتماعي . وهذان الكاتبان هما من اهم الممثلين لهذه المدرسة ، ويؤكدان لنا عكس هذا الرأي : اذ ان مهمة الواقعية الادبية هي الامام بواقع عصرنا . فروب - غرييه لا ينفذ بوجود واقع ثابت مفروض ابديا في المجال الانساني . ان جوهر الواقع الانساني ديناميكي ، لذا فهو خاضع للتغير على ممر العصور . ويشترك كل الافراد في تفسير الواقع ، لذا فنحن لا نؤمن بعلو الكتاب وتفوقهم على الآخرين . الا ان التحول الواقعي يشير مشكلة التحولات الاجتماعية التي تخلق احتياجنا لشكل روائي جديد . فما هي اسباب هذه التحولات الاجتماعية ؟ هل هي اقتصادية وثقافية وتكنيكية؟ تركت للابحاث الحالية في مجال علم الاجتماع وخاصة التركيبية ان تجيب على هذا السؤال . وفي المجال الادبي يبدو ان السبب الرئيسي هو الوحدة التركيبية الشخص - الاغراض التي تحولت وادت الى تلاشي

الشخص لصالح استقلال الاغراض - او الاشياء - . ان الشكل الروائي متصل مباشرة بالبنى الاقتصادية - بنى التبادل والانتاج من اجل السوق . وهنا تبرز اهمية النظرية الماركسية حول المجتمع الرأسمالي حيث تسيطر « وثنية السلع » وتاليه المادة وعبادتها ممسا يؤدي الى سحق الانسان واستعباده . فهذه كما يظهر احدي نتائج المجتمع الرأسمالي التي اشار اليها ماركس في معظم مؤلفاته . فهل هناك علاقات وتوافقات بين تاريخ بنى الاستعباد وتاريخ البنى الروائية؟ وحتى نجيب لا بد من تعريف اربعة عناصر رئيسية : الاستعباد كنسيير ببيكولوجي . الاقتصاد الليبرالي . نمو الكارنل والاحتكار والرأسمال في القرن العشرين والانتقال من الرأسمالية الى الاستعمار . واخيرا يجب تعريف تدخل الدولة في تنظيم الاقتصاد . فماذا تعني كلمة مثل « Réification » ؟ ان ماركس يستخدمها في كتابه « الرأسمال » بمعنى « عبادة البضاعة » . وهذه العبادة التي تؤدي الى استعباد الانسان ، ناتجة عن غياب المنظمة القادرة في المجتمع الرأسمالي الليبرالي على تنظيم الانتاج والتوزيع بطريقة واعية داخل وحدة اجتماعية محدودة . وهكذا يحول المجتمع الليبرالي كل القيم الفردية الى امتلاك لاشياء ولا يعبر كحقيقة انسانية جوهرية سوى الفرد المنعزل عن المجموع . وهكذا نتحقق كما نرى نظرية ماركس علميا .

وقد اوضح روب - غرييه : ان الرواية الكلاسيكية تعطي اهمية كبيرة للاشياء الا ان هذه الاشياء تستقي اهميتها من علاقات الافراد بها . وهكذا نستطيع ان نميز بين مرحلتين في تاريخ بنى المجتمع الرأسمالي . المرحلة الاولى وهي المرحلة الاستعمارية الممتدة من 1912 الى 1945 وتمتاز بنلاشي الفرد كحقيقة جوهرية وباستقلال الاشياء . والمرحلة الثانية هي المرحلة الرأسمالية بتنظيمها المعاصر ، وتمتاز باقامة عالم الاشياء وتحويله الى عالم مستقل ببناءه الخاصة ، التي تسمح في الحقيقة ، وحدها للانسان ان يعبر عن ذاته . انهم يفصلون بذلك الانسان عن مجال تجربته الكيانية ، عن وسائل الانتاج والالات والمصانع ... فيتيسر لهم استعباده بذلك . وتختلف ناتالي ساروت عن روب غرييه حول غاية البحث الروائي فقط . فهذا « الاسترقاق بالمعنى الماركسي » هو موضوع رواية روب غرييه الثالثة : الفيرة . حيث يتحول الافراد الى مشاهدين ، الى كائنات سلبية ، ويتحول الافراد الى اشياء حيث يصير من الصعب التمييز بين الافراد والاشياء . فما هو اكثر اهمية هو بنية العالم الجديد حيث لا يستطيع البشر ان يسيطروا على الاشياء ، وحيث تتلاشى مشاعرنا طالما اننا لا نتمرد على عبودية الاشياء . وينشق روب غرييه عن الماركسيين . فيوضح : ان الماركسيين هم اصحاب مواقف . اما انا فاني انسان واقعي وموضوعي . وهذا لا يقنعنا ابدا . فالانسان موقفي مهما فعل . فحينما يختار روب غرييه الواقع والموضوعية ، نسأله لماذا فعل ذلك؟ ما الذي دفعه لمثل هذا الاختيار ؟ ومهما تكن اجوبته فاننا نستنتج انه اتخذ موقفا شاء ام ابى . وهو يلتقي مع الماركسية رغما عنه حول ضرورة اتخاذ المواقف . والا فسيبطل الكاتب ان يصير كتابا اذ انه لا يستطيع ان يبقى « ذا عين باردة » . ان الاختيار يفترض الحرية وتفترض انظمة فلسفية وفكرية وتقييمية . ان اختار هو ان اقيم والتقييم يعني انني اتخذ موقفا ما حسب وعي . ولا يهم هنا ان يكون الموقف بمعناه السارترى او بمعناه الماركسي . ويقصد روب غرييه انه بعكس الفلسفة الكلاسيكية التي تحلل موضوعا ما وتصدر حكما عليه ، سيلجأ الى خلق عالم متخيل ، دون ان يحكم او يدين او يستحسن . ان مهمته هي تسجيل الوجود كواقع جوهرى . يحق لنا ان نسأل هل هذا ممكن ؟ ونحن نجيب هذا غير ممكن لا علميا ولا ادبيا . ولناخذ مثلا في الادب : ان كتابات كافكا وسارتر في الفئسان ... هي كتب موقفية ازاء اللامعقول ... الكاتب لا يستطيع ان يصير الة .. الكتابة تجربة وتفترض المشاركة والحساسية . ولعل روب غرييه يناقض نفسه : ففي كتابه « المناهة » يسيطر جو من الكتابة . هذه الكتابة تحتاج الى شعور ووعي بشري . والوعي يفترض التفكير بشيء ما ، والتفكير سواء ارتبط بالواقع او

فالعلم كما نعرف هو مجهود خاص لاكتشاف علاقات « ضرورية بين الظواهر ، واما المحاولات الفاصدة اكتشاف علاقات بين الاعمال الفكرية والجماعات المنظمة اجتماعيا - المتهرة كقوى خلافة - فهي حسب معرفتنا العلمية الراهنة اهم من كل المحاولات السابقة التي كانت تعتبر ان الفرد هو الخالق الحقيقي . لذا لا بد لعالم الاجتماع ان ينسى اهمية الفرد النسبية وعليه ان يتابع ابحاثه في دراسة بنى المجتمع - أي مجموع العلاقات الاجتماعية المعقدة . وعلم الاجتماع الادبي سينتج نحو دراسة محتوى العمل الادبي آخذا بعين الاعتبار وحدة هذا الاخير . ان المنهج التركيبي قد مثل تغييرا كليا في اتجاه البحث ، فافتراضه الرئيسي كان : الاخذ بعين الاعتبار الميزة الجماعية للخلق الادبي ، وان هذه الميزة تنبع من « تركيبات » عالم العمل ذاته ، وان هذه التركيبات موافقة لتركيبات بعض الجماعات الفكرية او على علاقة فكرية واضحة معها . بينما كان يعتقد سابقا ان الكاتب له حرته الكاملة في الخلق والتخيل منفصلا عن المحددات الاجتماعية . وهذا ما يفصل جوهريا علم الاجتماع الذي يدرس محتوى المؤلف عن علم الاجتماع التركيبي . وغاية عالم الاجتماع هي الشرح والفهم اللذان يشكلان وجها واحدا لعملية واحدة . ولا بد اخيرا من دراسة وظيفة الخلق الادبي واثرها في الحياة الاجتماعية . ان التحليل النفسي ، كما قدمه فرويد على الاقل ، غير مقنع وغير كاف علميا . فشروح فرويد لا تأخذ بعين الاعتبار ابعاد الزمن وخاصة المستقبل . وفرويد يتجاهل تماما قوى التعادل الوضعية التي تؤثر على البنية البشرية والفردية والجماعية . فالشرح يعني في لفته العودة الى الطفولة والقوى الفريزية المكبوتة . . . ويتجاهل الدور الايجابي الذي يستطيع ان يلعبه الوعي وعلاقة الانسان بالواقع . واما الفرد فهو عند فرويد « فاعل » مطلق وكل الاشخاص الاخرين ما هم سوى اغراض لاشباعه او لحرمانه .

اما النظرية الماركسية فهي بدون شك منقمة جدا على النظرية الفرويدية ، اذ انها لا تدخل المستقبل كامسئل تعاقلي فقط بل كعنى فردي للاحداث الاجتماعية الى جانب معناها الجماعي . وهذا يعني ان المعنى الفلسفي للكاتب باسكال « افكار » لا يتضح الا بواسطة تحليل تاريخي - اجتماعي (علميا) . اما الدراسات البسيكولوجية فتستطيع ان تساعدنا على فهم النقطة التالية في كتابات باسكال : فهي قادرة ان توضح لماذا استطاع باسكال كفرد ما بين مئات الجانسينيين ان يعبر عن رؤية تراجيدية على الصعيد الادبي والفلسفي ، دون ان تصيف اي شيء الى مشكلة : طبيعة ومحتوى ومعنى هذه الرؤية التراجيدية .

تلك هي اهم النقاط التي عالجهها كتاب غولدمان . وهذا الكتاب هو مجموع نتائج واقتراحات لذا فهو ذو قيمة اخبارية قبل كل شيء وله قيمة علمية افتراضية . لذا فهذا الكتاب دعوة للمشاركة في طرح وفهم مشاكل الادب في مجال جديد هو مجال علم الاجتماع الادبي التركيبي والوظيفي والتاريخي . اذ كل هذا يتمم بعضه البعض ويصلح اخطاء كل باحث على حدة . فالشرح السببي لا يتنافى مع الشرح التاريخي او النفسي او الاجتماعي . فهل نجح غولدمان في محاولته هذه ام اخفق ؟ نحن نرى ان الاجابة في هذه المرحلة من البحث مبكرة جدا . الا ان عمله رصين جيد وعميق - والعمق لا ينبع هنا من ايراد اشياء كثيرة بل من الالاح على ما هو جوهرى ومحرك في دراسة الادب . فبانظار تنمة هذه الدراسة نرجو ان تكون هذه الدعوة موجهة ايضا للباحث العربي الذي عليه ان يقيم تراثه - وعلى الاقل ان يرى هذا الركام من الكتب الحديثة والمعاصرة التي تحتاج الى درس وتوضيح وتقييم حتى نتمكن فعلا ان نعرف اين صرنا في مفامراتنا الفكرية وما هي العلاقة القائمة بين ادبنا وتطورنا الاجتماعي ، الثوري خاصة . وهذا ما سنحاول ان نشبين بعض نقاطه في القسم الثاني من هذه الدراسة : « مع الثورة » .

خليل احمد خليل

جامعة ليون (فرنسا)

بالادافع ، يفترض اتخاذ موقف ما . ونحن نسأل لماذا اختار الكتابة دون سواها في كتابه هذا ؟ ثمة مشاكل كثيرة للمجتمع الصناعي الراسمالي الذي يكتب عنه غرييه : الاضرابات ، مشاكل التعليم ، الحريات الحقيقية . . . لماذا اختار هذه الظاهرة بالذات ؟ ان اختياره هذا نابع عن موقفة مقصودة . واما ان يصف الشعور بالكتابة بصدق فهذا شيء اخر ، والصدق نسبي وصعب . فمثلا في كتابه الذي صار فيلما « السنة الاخيرة في مارينباد » يبدو للكتابة والقلق وجه اخر : الامل . اليس هذا حكما على الواقع واختيارا موقفيا ؟ ان مشكلة الوجود البشري الصحيح هي مشكلة الزمن وطبيعته : الزمن الفردي والتاريخي او النفسي والاجتماعي . وهذا ما اكتشفه علماء الاجتماع منذ عهد بعيد حينما ادكوا : ان الحياة العاطفية والفكرية لها معناها الموضوعي وخصائصها التاريخية والاجتماعية . ان واقعية روب غرييه وسارروت تعني خلق عالم مماثل ببناء لبنية الواقع الاجتماعي الذي يولد فيه العمل الادبي .

ويختتم غولدمان كتابه بمقال بعنوان « المنهج التركيبي في تاريخ الادب » . ويعتبر غولدمان الابداع الفكري كفرع مميز بدون شك ، لكن له نفس الطبيعة التي تملكها الفروع الاخرى المعبرة عن السلوك البشري . لذا فالابداع الفكري خاضع لنفس القوانين التي تخضع لها هذه الاخيرة ، وهو صعب الدراسة علميا . الا ان التركيبي تحاول ان تتخطى تلك الصعوبات . ولتر معا اهم مبادئ هذا المنهج العلمي في النقد . نلاحظ ان ثمة تعارضا بين مدرستين كبيرتين في النقد الادبي ، تتم احدهما الاخرى . هاتان المدرستان اللتان ترتبطان بهذا المنهج هما : الماركسية والتحليل النفسي . وتنطلق التركيبي من الافتراض التالي : ان كل سلوك بشري هو محاولة في اعطاء جواب ذي معنى على موقف خاص ، ويميل هذا السلوك الى ايجاد تعادل بين الفاعل وموضوع الفعل في عالم مزدوج . فما هو في الحقيقة مسبب التفكير والفعل ؟ ثلاثة اجوبة ممكنة : الفرد ، الجماعة ، الجماعة المنتظمة اجتماعيا . لكن لماذا نربط العمل بالجماعة المنتظمة اجتماعيا بدلا من ربطه مباشرة بالكاتب الذي الفه ؟ اننا لا ننكر اهمية الكاتب . لكن كيف نستطيع ان نتجاهل فنومولوجيا وتجربيا حقيقة الوسط الاجتماعي ؟ فالوسط الاجتماعي هو محدد خارجي ونماذج حقيقته الخاصة باثرها السببي وفعلها في تربية الفرد الفكرية . فالدراسات البسيكولوجية لم تتمكن ان توضح كيف كتب راسين مجموع مؤلفاته الدراسية والتراجيدية او تشرح لماذا لم يكتب مثلا مؤلفات كورنيل او موليير . هذا يعني ان علم الحياة الشخصية عاجز وحده ان يبرهن الظاهرة الادبية موضعا اسبابها .

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

- | | | |
|-----|-----------------|---------|
| ١ - | الادب الملتزم | ٥٠٠ ق.ل |
| ٢ - | ادباء معاصرون | ٤٠٠ ق.ل |
| ٣ - | جمهورية الصوت | ٤٠٠ ق.ل |
| ٤ - | فضايا الماركسية | ٤٠٠ ق.ل |
| ٥ - | المادية والثورة | ٤٠٠ ق.ل |
| ٦ - | جمهورية الصنم | ٣٥٠ ق.ل |

منشورات دار الاداب